نُــــذُر الجنــون

محمد سعد زغلول سالم

الثلاثاء ١٨ سبتمبر ١٩٧٣

وكان كثيراً ما يُغْرِقْ فى أحلامٍ يقظة ووَهْمِ أُمْنيات يراها ويلمسُها ويحياها كأنها واقع يحيط به فى كل مكان ويسبق وجوده بل ويَعْقُبُه أيضاً رغم إدراكِه أنَّ كلَّ هذا إنْ هو إلاَّ مَحْض خيالٍ هائم بغير هادى أو دليل لا يعرف أين يَحُطُّ أو أين يذهب أو أين المصير. وكثيرا ما كان يختلط فى ذهنه المُمْكِن والمستحيل حتى لَيَقَفُ عقلُهُ حائراً عاجزا عن التفكير أو التمييز. وفى أحيان كثيرة تثورُ فى أعماقه رغباتٌ غامضة لا عَهْدَ له بها تكاد تدفع به صَوْبَ ظلمات الجنون عندما تستبِّدُّ به مشاعرُ الحزن على طبيعة الحياة وتغْمُرُه حسرةُ اليأس من أن يتغيَّر المصير .. ويُحِسُّ بشقاءٍ لا تحتمله روحه عندما يتبَّدى لبصيرتِه الضعفُ البشرى أمامَ كلِّ ما خلقه الله فى هذا الوجود من سحرٍ وجمال .. عندئذٍ كانت تجتاحُه أفكار مُرَّوِّعَة لا يستطيعَ صَدَّها عن ظلم القدر للإنسان وأحاسيس هادرة بأمنياتٍ لا سبيل إلى تحقيقها أو التفكير فيها رغمَ أنها لم تكن لتَعْنى شيئا للقَدَرْ أو تُغيِّر من نظام الحياة أو طبيعة الوجود. ويبلغ شقاؤه مداه عندما يُفْلِتْ عقلُه من إسارِه ويندفع كإعصارٍ مُدَمِّر صَوْبَ المجهول صارخاً متسائلاً أما مِنْ سبيل ؟ وعندما لا يجد مِنْ إجابة غيرَ صدى صراخِه يهْدُر ثائرا يائساً إلهى .. كيف ؟ ولماذا هذا المصير ؟. ويظَّلُّ عقلُهُ هكذا سادِراً فى غيِّهِ أمامَ المستحيل الذى تكتنفُه غياهبُ المجهول ساعاتٍ وأيام بل وشهورْ طُوال حتى تهدأ ثورتُهُ ويخمُدُ أوارُه ويسقط منهوك الفكر والإدراك صريعَ الحسرة واليأس والأَسَى ولكن ــ و يا للشقاء ! ــ بغير أن يستكين !؟، فما أن يتماثلَ للشفاء وتبدأ جراحُهُ فى الإندمال ويعود إلى دنيا الواقع منكسراً ذليلاً قانِعاً بما هو كائن وراضياً بأحزان المصير حتى تتجدَّد ثورتُهُ كبركانٍ يبدو خامداً بينما تتراكم حممُه بغير توقُّف أو إنقطاع .. وتبدأ أفكارُه فى التجُّمع شيئاً فشيئاً كقطرات المطر حتى تصيرُ سَيْلاً هادِرا من المشاعر والأحاسيس التى تدفعه ثانيةً بغير تبصُّر أو رَوِيَّة صوب غياهب المجهول ليعاودَ الصراخَ بغير مُجيب سِوَى صداه وليعاود التساؤل بغير إجابةٍ سِوَى الصمت .. الصمت الغامض الذى تنطقُ رهبتُه بأكثرَ مِمَّا يحتمل عقلُه أو يطيق .!. وهكذا تمضى أقدامُ الزمن صَوْبَ النهاية التى قد لا تحين إلاَّ بعد ملايين السنين ويظَّلُّ عقلُه هائماً يحلمُ بأن يُرافِقَ الزمنَ حتى النهاية ! بل ويعتقد أحياناً بإمكانية ذلك إستثناءاً مما دَرَجَ عليه الأحياء رغم يقينه من أنَّ ذلك هو عين المستحيل !!.

